السلسلة السمعية : بصائر القرآن

الشريط الثالث

ملك يوم الدين

أعظم بصائر الآخرة

الشيخ الدكتور فريد الأنصاري -رحمه الله-

تفريغ من إنجاز فريق بصائر بموقع الفطرية

WWW.ALFETRIA.COM

الفاتحة أم الكتاب ..والآخرة ثاني بصائرها العظمى بلا ارتياب

.. أيها الأحبة.. مع بصائر القرآن الكريم، بصائر آيةٍ من آيات الفاتحة مما كنا فيه قوله عز وجل: {مَلكِ يَوۡمِ الدِّينِ }(الفاتحة :الآية 4) هذه الآية فيها بصائر كما قال الله عز وجل في القرآن الكريم عن آياته: (قَدۡ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَبِّكُمۡ) (الأنعام 104) تبصر المؤمنين الذين يؤمنون بالله ويؤمنون بالآخرة، تبصرهم حقيقةً من حقائق الحياة الكبرى، وهى أن مآل العيش هو عيش الآخرة، وأن مآل الوجود هو الوجود الثاني، وأن مآل البدء هو الإعادة أي قوله عز وجل: (كَمَا بَدَأۡنَا أَوَّلَ خَلۡقٍ نُعِيدُهُ)(الأنبياء 104) فالآخرة حقيقة عظمى بل لعلها من أعظم حقائق الكون بعد الإيمان بالله، ولذلك ذُكر الإيمان بالله مقروناً بالإيمان باليوم الآخر، فيما من آية وما من حديث، أحاديث كثيرةٌ جداً : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر.. من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت (1).. فليكرم ضيفه (1).. إلى آخر ذلك وهو كثير. أما القرآن الكريم فلا يكاد يذكر الإيمان بالله إلا مقروناً بالإيمان باليوم الآخر، ولا يذكر حمد الله عز وجل إلا مقروناً باليوم الآخر؛ فحقيقة اليوم الآخر حقيقةٌ يجب علينا أن نكتشفها كما ذكرتُ من قبل وبينت، والمطلوب منا نحن المسلمين أن نعيد النظر، أن نعيد التفكر والرنو والتأمل، نعيد النظر في حقيقة الحياة الآخرة؛علينا أن نكتشفها . نحن نعرف ألفاظ ذلك ونؤمن بالحقيقة هكذا إيماناً إجمالياً، يعنى المسلمون كافة يؤمنون بالبعث إيمانا إجماليا؛ ولكن في كثير من الأحيان بدون معرفة ! ليس عندنا نظرة عارفة أي قريبة من حقيقة اليوم الآخر، ولذلك وجب علينا أن نكتشفه. تأملوا هذه الآيات من الفاتحة التي نقرأ بها كل يوم! هذه السورة اليتيمة في القرآن الكريم، بل في الكتب المنزلة من السماء إلى الأرض من عند الله إلى

الأنبياء والمرسلين. الفاتحة حينما نشرع في تأملها من حينٍ لآخر، نجد فعلاً أننــا نقرأ شيئاً من القرآن لا ندرك حقيقته حق الإدراك، وحق المعرفة، و أن آياتها أي آيات الفاتحة هي من العظمة، بحيث لو اكتشف القلب بعض حقائقهــا لانبــهر لذلك الاكتشاف، ولوجد نفسه عاجزاً عن حمد الله وشكره كما يليق بجــلال وجهه وعظيم سلطانه، أن جعله من المسلمين الذين يقرؤون ســورة الفاتحــة. القرآن الكريم فيه كتب، بل فيه الكتب السابقة، القرآن الكريم فيه الإنجيل.. فيه الزبور، فيه صحف إبراهيم؛ فيه كل القرائين والصحف التي نزلت قبلُ، جمعها الله عز وجل في القرآن الكريم، وزادنا على ذلك فضلاً كثيراً ! اقرءوا قول الله عــز وجل: (**رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ**)(البينة 2,3) سيدنا محمد -عليه الصلاة والسلام- يقرأ القرآن، في القرآن كتب قيمة (**إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى**) (الأعلى: 18,19) لم تكن الكتب السماوية الربانية القديمة من السعه والشمول كما هذا القرآن الكريم (**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**)(الإسراء 9) قرآنٌ هادٍ جامعٌ مانعٌ لكل الخيرات الــسابقات، وزاد خيراً كثيراً وفضلاً كبيراً .ثبت عن النبي -عليه الصلاة والسلام- .. في حــديثٍ صحيح الإسناد أنه قال: (كان داود يقرأ القرآن بينما يسرُج دوابه)(2) داود -عليه السلام- كان يقرأ قرآنه،يعنى الزبور، والقرآن أحياناً يطلق على كل كتاب نزل من السماء لكثرة قراءته، لأن القرآن مصدر من مصادر الامتلاء، فُعلان تدل على القراءة الكثيرة، لأنه يُقرأ بكثرة، ومنظم أيضاً، هذه من معاني لفظ القــرآن الكريم؛ فكل كتب الله عز وجل كانت تقرأ بكثرة وكانت منظمة. الشاهد عندنا أن قراءة داود للقرآن كل القرآن، سُهِّل على داود القرآن، أو يسر علــى داود القرآن، فكان يقرأه بينما يسرج دوابه، هذا تقريباً جامع الحديث، أي الألفــاظ

الجامعة للحديث التي ذكرت عن النبي -عليه الصلاة والسلام- ربي سهل على داود القرآن، يعني أنه أعطاه قرآنا مختصرا، كان يقرأه، يبدأ بأعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم، حتى إذا أعد الخيل والسرج والركاب وجهز نفسه للامتطاء يكون قد ختم القرآن ! يعني أنه ليس فيه كثير من الآيات، كان مختصرا، هذه المدة .. الإنسان يتخيلها، ولو أنه كان يفعل ذلك بشكل مطول، لأن داود -عليه السلام- كان يرتل القرآن ترتيلاً كما قال النبي -عليه الصلاة والسلام- لأبي موسى الأشعري: (لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود)(3) ومعروف بنص القرآن كيف كان داود يستجلب الطير والجبال بقراءته (يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ)(سبأ:10) (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ)(ص:18,19) .. هذا يعني أن قراءته لم تكن سريعة، ليست مهدورة، ولكنها مرتلة، فعلى فرض أنها بهذا الشكل، كم يتصور أن يقرأ من آية، في اللحظة التي كان يقرأ فيها القرآن كله، من البداية حتى النهاية، بينما يسرج دوابه؟ يعني إسراج الدابة حتى الركوب عليها لا يتطلب أكثر من أربعين دقيقه بالتوقيت المعاصر، أو خمسين دقيقه.. أو ساعة بالأوفى، فإذن بالقراءة المرتلة بالشكل الذي ذكرنا،لن يتعدى حجم القراءة حزبين على أكبر تقدير أو ثلاثة أحزاب ! بل لنقل ...سورة البقرة، و لا يُتصور هذا بالشكل الذي قلنا ! فالمقصود عندنا أن الأنبياء السابقين والرسل، أعطاهم الله عز وجل قرائين مناسبةً لزمانهم ومكانهم وإنسانهم ،إذ طبيعة الإنسان بحسب الزمان مراعى فيها ما يليق بها من قرآن، ولذلك كانت التوراة فيها أحكام عقوبات، بعض الأحكام أنزلها الله عز وجل في التوراة من الحلال والحرام يعاقب بها بني إسرائيل، لم يعن فقط أن يلزمهم بالعبادة كما ألزم هذه الأمة بعبادة الله، كان هذا المعنى واردا و مقصوداً، نعم كان قصد العبادة من التشريع في التوراة،

ولكن كان أيضا قصد العقاب (فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ) (النساء 160) فبظلمٍ.. أي بسبب ظلمهم، باء السبب،.. فكان مما حُـرم علـى بـني إسرائيل مثلاً الشحوم، الشحوم كانت محرمة على بني إسرائيل، وغير ذلك مما لا نعلم. إذن الله عز وجل أنزل الكتب مناسبةً للزمان والإنسان الذي عاش مع ذلك الرسول أو ذلك النبي، وكانت كثير من الكتب تحيل على سابقها؛ نحو الإنجيل لم ينسخ التوراة نسخا كليا،الإنجيل الذي نزل على عيسى نزل يُعضّد التوراة يعـني يعمل بالتوراة زائد الإنجيل ،وإنما كان الإنجيل كتاب موعظة لحمل الناس علـى العمل بالتوراة، ولكن فيه تخفيف (... وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ)(آل عمران 50) أي رفع عنه الله عز وجل في الإنجيل بعض العقوبات التي نزلت في التوراة، وجاء القرآن الكريم وجمع فضل الكتب جميعاً !فالخير كل الخير الموجود في صحف إبراهيم، وفي كتاب موسى، وكتاب عيسى، وكتـاب داود، وكـل الكتب مما علمنا وما لم نعلم، جَمَعه الله عز وجل في القرآن الكـريم بنـصوص الآيات التي ذَكَرت (فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ)(البينـة 3) (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى)(الأعلى 18-19) ولذلك الـنبي –عليـه الـصلاة والسلام– ما أجاز للصحابة أن يعملوا بشيء من التوراة أو الإنجيل الذي كـان عندهم في زمانهم،و إنما العمل بالقرآن فقط، مما نزل من عند الله عز وجل وسنة النبي طبعاً التي هي شارحةٌ ومبينةٌ له. فائدة الكلام بعد هذا كله: إذا كان القرآن فيه ما مضى من الخير كله، ففيه أيضا من الخير ما لم يمض بعد! فيه ما لم يكن في الكتب السابقة قط، وهو سورة الفاتحة، ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل مثلـها كما قال النبي –عليه الصلاة والسلام– ترتيلة نرتلها كل يوم، وما أبـأس ومـا أضيع و ما أتعس من لا يرتلها! مع الأسف، الناس الذين لا يصلون، لا يعني فقط أن عقوبتهم شديدة وذلك صحيح، ومصيبتهم جليلة وذلك صحيح، و لكن مع

ذلك وقبله وبعده خاسرون ؛خاسرون من حيث لا يقرؤون الفاتحة ولا يـــصلون بها،فالنبي عليه السلام لم يقل هكذا عبثـــاً،و حاشـــاه أن يعبـــث في التـــشريع وبالتشريع .. (من لم يقرأ بفاتحة الكتاب فصلاته خداج) (4) أو كما قال –عليه الصلاة والسلام– وألزمنا بقراءة الفاتحة (الفاتحة أم القرآن) (5)أم الـــشيء هـــي الرأس والمنطقة الحساسة في الرأس، ولذلك رأس القرآن، والمنطقة التي تعتبر مفتاح القرآن ،من كشف الله له أسرارها انكشفت له أسرار القرآن الكـــريم. ســـورة الفاتحة حينما يحمد العبد ربه أن (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(الفاتحـــة 2) توحيـــداً وتفريداً له سبحانه وتعالى وعبادةً. ثم يُثْبت له أسماءه وصـــفاته(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)(الفاتحة 2 ،3) وصفة الرحمة كما ذكرنا قبلُ في البصيرة السابقة هي الصفة المفتاح، والاسم الأول لصفات الله عز وجل، ونعوته سبحانه وتعالى، كما هو بنص الحديث الصحيح (ورحمتي سبقت غضبي)(6) ،الرحمـــة سابقة . فرحمته سبحانه وتعالى هي مفتاح كل الأسماء الحسنى! ولـــذلك جـــاء بدَرجة ثانية؛ معرفة الله عز وجل من حيث هو ربٌ للآخرة، أي معرفة الآخرة؛ الرحمة الربانية تتدفق عبر اسمه الجبار والقهار، ففي اسم الجبروت لله عز وجـــل رحمةٌ للمؤمنين، فإذن أوائل السورة هي مع الله عز وجل ذاتا وصفاتٍ، تعريفاً به سبحانه وتعالى. أنت حينما تحمد ربك تحمده أنه هداك إلى معرفته، وإلى بـــدء الطريق إليه، فقال (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) أو (مَلكِ يَوْمِ الدِّينِ)(الفاتحة 4).

شهوده سبحانه تعرفا يفضي إلى شهود الآخرة تكشفا

قلنا في البداية يوم الدين الذي هو اليوم الآخر، يوم الحساب، يوم الجزاء، هـــو أهم حقيقة وجودية بعد الله عز وجل ... والإنسان قبـــل أن يكـــون مـــسلماً ؛الإنسان بصفة عامة يحكم حياته ومصيره أمران اثنان، بحيث إنـــه إذا أخطـــأ واحدا منهما أخطأه الخير كله، وأخطأ هو الخير كله: معرفة الله ثم معرفة اليـــوم الآخر. فالإنسان المتوجه إلى الله عز وجل في صلاته يعبد ربه ،انطلقَ إليه، يتعرف على ربه من خلال ذاته وأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، والطريـــق إلى الله عـــز وجل معرفةً تُفضي إلى الطريق إلى الآخرة معرفةً، ولذلك معرفة الآخرة عن طريق معرفة الله؛ معرفة الآخرة جاءت في هذه السورة وفي غيرها عن طريق معرفة الله (مَلكِ يَوْمِ الدِّينِ)(الفاتحة 4). فالسياق كان يتحدث عن الله ذاتا وصفاتٍ، حمداً له سبحانه وتعالى أن كان هو رب العالمين، وكان هو الرحمن الرحيم ..كل ذلك عنه وله سبحانه وتعالى، ثم أن كان (مَلكِ يَوْمِ الدِّين)(الفاتحة 4) فهذا الوصـــف هو وصفٌ لله عز وجل ،ملك، ولكن فيه إضافة أحالتنا و أسندتنا إلى الآخرة من بعد الله، من بعد الله (مَلك يوم الدين) (الفاتحة4). الإيمان بالآخرة نعمة عظيمة، يجب على الإنسان أن يحمد الله عليها كل مرة، ولذلك وردت في سياق الحمـــد (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الفاتحة 2). الحمد لله له أن كان هو ملك يوم الدين، و أن خلقنا لا للدنيا، ولكن ليوم الدين ،للآخرة، تعيس الكفر وتعـــيس الـــضلال والجهل يعيش في الشقاء مع الأسف الـــشديد (يَا حَسْرَةً على العباد ما ياتيهم من رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (يس 30)، و يا حسرة علينا -نحن المـــسلمين- أن هذه الحقائق العظيمة الجليلة بين أيدينا ؛-كنوز، ونحن عنها غافلون، غـــافلون !

يمكن تشبيه هذه الحال تشبيها ماديا .. لكن فيه تقريب، بحال العـــرب الـــذين عاشوا في الجزيرة العربية في العصور المتأخرة، قبل اكتشاف البتـــرول، كـــانوا يعيشون حياة الفقر، منشغلين بأمرين اثنين: الذين هم جوار البحر يأكل منـــهم البحر كل يوم، بسبب اشتغالهم باستخراج اللؤلؤ، يغوص غواصوهم لاستخراج صدفاته؛ هذه هي الحرفة السابقة لأصحاب الخلـــيج، أو رعـــي الماشـــية...لأن التجارة التي كانت عندهم من قبل بارت، منذ أن اكتـــشف الأوربيـــون رأس الرجاء الصالح، وبدلوا الطرق التجارية من جهة العرب إلى جهة إفريقيا، والبترول لم يكتشف بعد، فكانوا يعيشون الفقر المدقع فعلاً... ولو أنهم حفروا قليلا تحت أرجلهم لوجدوا الكنوز العظيمة، التي حينما اكتُشفت بدلت طبيعة الحياة رأســـاً على عقب في الشرق، بل في العالم؛ مَثَل مقرب، لكن لن يعطي الحقيقة كاملة؛ حالنا –نحن المسلمين– مع القرآن كذلك، الآيات نمر عليهـــا **(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا** _ صباح مساء نمر عليها_ **وهم عنها معرضون)** (يوسف 105) ليس لنا خبر بها، لا لأننا لم نرها، رأيناها، ولكن أعرضنا بسبب اشتغال القلب بالدنيا والدنيا فقط، بسبب غفلة القلب عن شهود الله وشـــهود الآخرة، بسبب موت الإحساس. فعلاً إحساسنا ميت ونعاني منه أجمعين،المستيقظ منا يعانى من مرض، هذا المرض هو هذا الإحساس الضعيف، فنحن بين ضـــعف وموت، إما غافل تمام الغفلة لاه تمام اللهو، أو فيه بعض اليقظة لكن يعاني مـــن مرض عصره، وهو المرض المادي، ضغوط الدنيا المادية!يجذبها وتجذبه،والإيمان بين هذا وذاك في حال شدٍ وجذبٍ، والمؤمن الذي ثبته الله عز وجـــل هـــو الـــذي استطاع أن ينتصر على مغريات الحياة الدنيا، ينتصرُ لله عز وجل مـــن نفـــسه، فيؤمنَ باليوم الآخر حقاً ومشاهدةً، ويسعى إلى ذلك سعياً كما ذكرنا مـــراراً في قول الله عز وجل: **(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)**(الإســـراء

18) (مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا) الذي يريد الـدنيا يعطيـه ربي الـدنيا ولكن (مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ) يعطيه ما يريد ربي؛ لا يعطى ما يريد هو! و (لِمَنْ نُرِيدُ) يعطي ربي من أراد سبحانه أن يعطيه،والذي لا يريد سبحانه لن ينعم بعطائه، وإن جد وكد، فالإرادة تعلقت بالله مرتين :بالمعطى أي ذاك الشيء الذي يعطيك ما هو؟ ولمن يعطيه؟هذا في الدنيا (مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَه) ما دام أن إرادته تعلقت بالدنيا، ربي يعطيه من الـدنيا (عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ) يعطيه ذاك الشيء الذي أراد ربي أن يعطيه له ، يغنيه بهذا الشيء... يعطيه ربي من رزقه الذي أراده هو، ويعطيه بعد ذلك لمن شاء هو، لا لمن شـاء مـن الناس (...ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا)(الإسـراء 18)، ولـذلك لا عطاء من أمور الدنيا إلا وهو صادرٌ عن الله بإرادة الله وبعلمه. النـاس بعـض الأحيان يتحسرون، يذهب بعضهم إلى فرنسا أو إلى أمريكا أو نحوهما، ثم يعود فيقول: الناس ثمة سبقونا بخمس مئة عام أو ألف سنة، كم يلزمنا من الجهد حتى نصل ما هم عليه، والواقع أنه اعترانا ما اعترى ضعاف بني إسـرائيل في زمـان موسى، يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون! لمه؟ هذا الذي يحصل بـسبب ضَـعف الإيمان لدى الإنسان (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ...)(طه 131) زهرة! التعبير القرآني سبحان الله العظيم دقيق، لـيس ثمة ما يذبل سريعا مثل الوردة، عمرها قريب... حَياتها و شبابها هـو قبـل أن تتفتح... حينما تكون برعوما، أو عند بداية التفتح، أما عند نهايتـه تبـدأ في التشتت، هذه هي الدنيا!

أحد الناس قال:"حينما عشنا متنا"...الإنسان يبدأ حياته العملية غالبا وبه خصاصة، فيكد ويجد في كنف دفء الأولاد والأسرة، والعائلة والرحم، حتى إذا اغتنى نقصته أشياء أخرى، قد يموت طرف من العائلة، قد تنقصه حاجة من جهة أخرى، سبحان الله العظيم، ترزق من جهة، وتحرم من جهة أخرى، والكمال في حكم العدم (لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ) (زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ)، وهذه الحقيقة العظيمة القرآنية أراد الله منا أن نبصرها، ولذلك أمرنا بقراءتها كل يوم؛ نصلي بها الصلوات الخمس والفجر، ونوتر بها ونقوم الليل.. الفاتحة، عسى أن نكون من القانتين، وعسى أن لا نكون من الغافلين عن (مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ) (الفاتحة 4) فهو مالك سبحانه... الملكية للآخرة له وحده دون سواه، هذا لا يعني أن ملكية الدنيا ليست له، لا، ولكن ظاهر الملكية في الدنيا أنها للناس ،ظاهر الملكية، وإلا فهو سبحانه وتعالى مالك الدنيا ومالك الآخرة، رب عالَم الغيب ورب عالم الشهادة كليهما، إنما هو سبحانه في الآخرة يتفرد بالمُلك والمِلك ظاهراً وباطناً (...لِمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ)(غافر 16) سبحانه وتعالى، فهو مالك ذو ملكية، وهو ملك ذو سلطة وسلطان ورهبة.. فحينما يشاهد المؤمن هذا يذكر الله عز وجل به، لذلك الذكر مطلوب (لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله)(7)، ذكر الله عز وجل أنك تجدد المعاني الربانية بقلبك... وإذا تجددت نمت وربت،وملأت الكيان ... فإن لم تتجدد تبددت، هذه المعاني إن لم تجددها تقل و تنقص..حتى تنقرض لا قدّر الله، فالمؤمن إذن مطلوبٌ منه أن يجدد إيمانه بهذه السورة العظيمة، أن يجدد الحمد لله، وأن يتعرف على ربوبيته... نقصان معرفتنا بالله كبير، مطلوب منا أن نعمل ونشتغل،نشتغل بالله.. معرفة، كلنا – نحن المسلمين- عندنا شيء.. من المعرفة، أقلها أننا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله -عليه الصلاة والسلام- ولكن مطلوب منا أن نعمل على هذه الحقائق، ونشتغل بها حتى نزداد اكتشافا لها

ومعرفة بها، وقلنا أكثر من مرة هذه المعارف ليست متعلقةً بالعلم وحده، بل هي متعلقة، قبل ذلك وبعده، بالصدق وحسن النية والإرادة الثابتة، يريدون وجهه! (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...) (الكهف28)

أول الخيرات إبصار أنوار الفاتحة عبر الصلوات

هو مطلوب فعلاً أن يداوم الإنسان على تمثل الحقائق القرآنية من سورة الفاتحة وغيرها، تمثلها وحاول أن تعيشها،هذا معنى التمثل؛ كلما قرأت الفاتحة في صلاتك أو في غير صلاتك،ولكن في الصلاة آكَد ! حاول أن تعرف ما تقرأ، وحاول أن تحس بما تقرأ، إذ تجد نفسك بين يدي ربك كما يجد المربوبون أنفسهم بين أيدي ساداتهم، تملأهم الرغبة طامعين.. وتملأهم الرهبة خائفين؛ الله أحق بهذه الصفة في عباده، رغبةً فيه سبحانه ورهبةً منه (...إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا...)(الأنبياء 90) سادتنا الأنبياء أعطاهم ربي ما طلبوا، كل نبي سأل الله عز وجل مسألة من الخير والصالحات، ما رد الله دعاء واحد من الأنبياء والصالحين، ولكن دأبهم وشأنهم هو ما ذكرنا (كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا) يسارعون في الخيرات؛ وأول الخيرات السير إلى الله عبر الصلوات؛ لا خير أكبر من هذا إطلاقاً من عمل ابن آدم (واعلموا أن خير أعمالكم عندي الصلاة) كلام سيدنا عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– أخذه من حديث النبي –صلى الله عليه وسلم– سمعه (خير أعمالكم الصلاة)(8) و أرسل سيدنا عمر رسالة إلى عماله و ولاة أقاليمه، يقول لهم...– هذا الكلام

ذكره الإمام مالك في موطئه- (واعلموا أن خير أعمالكم عندي) يعني هذا أمير المؤمنين، رئيس البلاد الإسلامية، يحمل هم خدمة الولاة و العمال للبلاد؛ قال لهم الخدمة الأولى التي أهتم بها،ينام ويفيق عليها مهتما بها (و اعلموا أن خير أعمالكم عندي الصلاة، فمن حفظها كان لما سواها أحفظ، ومن ضيعها كان لما سواها أضيع) الذي حفظ ما بينه و ما بين ربه، هذا فيه خير كبير، يعني.. يخاف الله، فهذا أطمئن له أنه سيحفظ حقوق الناس، والذي ضيع ما بينه و ما بين ربه، هذا لا يخاف الله، فهو لما سوى ذلك أضيع، هذا نخاف منه. وحفظ الصلاة ليس أداء شكلياً وحسب، بل بما ذكرنا هو سير، هو خدمة، اشتغال وهم، هم يحمله المؤمن أربعا وعشرين ساعة على أربع وعشرين ساعة، إذا نام من الليل نام على هم صلاة الفجر، وإن كان من الذاكرين أو من القانتين نام على هم قيام الليل. وقيام الليل.. نعمة كبيرة محرومون منها.. حقيقة..! لمه؟.. لأنها سهلة، و كثير من الناس يتصورون أن قيام الليل... من الصعوبات الكبرى، بسبب كثير من الأدبيات التي كتبت في الزهد، فيها مبالغات، وفيها أباطيل! تجد في تراجم بعض الناس الصالحين والعلماء العاملين...ومن غير أن نذكر أسماء بعض أرباب المذاهب؛ ذُكرت في حق كثير من العلماء الكبار؛ أنه صلى الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة ! هذا ليس بمدح،بل ذم هذا، إذا كان يفعل ذلك فقد و -**خالف السنة**- (..قضى الأمر الذي فيه تستفتيان) (يوسف 41)..لا ينبغي لأحد يريد أن يمدح إمام مذهبه أن يزيد عليه ما ليس فيه ،يقول.. الإمام الفلاني صلى الفجر بوضوء العشاء، هذا يعني أنه لم ينم قط أربعين عاما، إذ كلها في قيام الليل.. ! والأمر أولاً مستحيل،لأن صاحبه إن ظل على هذه الحال لابد أن يمرض ويهلك،ثم إنه قبل ذلك مخالف للسنة (أما وإني أعبدكم لله وأخشاكم له) (9) أو كما قال –عليه الصلاة والسلام- في حديث الثلاثة رهط (ولكني أصلي وأنام

وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فلـــيس مـــني)(9) القـــضية خطيرة،لأن خلاف هذا التوجيه ليس من السنة، و بسبب ذلك صار المرء حـــين يسمع قيام الليل يتهيبه! يحسب أنه أمر لا يطاق، وإبليس اللعين يكثر من مثـــل هذه الخرافات بين المسلمين حتى يتركوا قيام الليل؛ سيدنا عبد الله بن عمـــر – رضي الله عنهما- قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم- مرة (نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم بليل) (10)...العلماء الدارسون للفقه والشريعة وأصول الـــشريعة يسمون هذه العبارة بليل:لفظ مطلق، بليل: نكرة مفرد تدل على المطلق،لم يقل لو كان يقوم اللّيل و أدخل "أل" لاستغراق الليل كله، وإنما قال بليل ،والباء تدل على التبعيض ،يعنى جزءا من الليل، و لم يقل كل ليلة، و لم يقل الليلة الفلانيـــة، فترك ذلك على إطلاقه حسب نشاط القلب وانفتاحه وانبساطه للعبادة، ولذلك النبي –صلى الله عليه وسلم- سهل هذا الأمر؛ هذا كلامٌ أوردناه للفائدة لأنفسنا جميعاً جاء في سياق الفاتحة، المؤمنون الأولون ما كانوا يشبعون من القرآن، و.. من الصلاة و.. من الفاتحة، كانوا يكثرون، يصلون الصلوات الخمس،ثم يجتهدون في الليل لأنهم يشعرون بطول المسافة من العـــشاء حـــتى الـــصبح مـــن غـــير صلاة،يطول عليهم الحال، لأن الصلوات الخمس كلها متقاربة نسبياً من الصبح للظهر، من الظهر للعصر، من العصر للمغرب، من المغرب للعشاء، كلها متقاربة. من العشاء إلى الصبح يكاد يكون أو يوازي ما صلاه، يوازيه بـــدون صـــلاة، فالمؤمن ينفلت هاربا من فراشه ليلقى ربه في ساعة الخلوة، من غير أن يطلع عليه أحد. في حديثٍ صحيحٍ عن النبي –عليه الصلاة والسلام- قال: (من قام بعشر آياتٍ لم يكن من الغافلين)(11) ما معنى لم يكن من الغافلين، يعنى كـــان مـــن الذاكرين، شيء عجيب (من قام بعشر آياتٍ) ما هي عشرة آيات يعني من السور القصيرة: والضحى، اقرأ، أو ما يقارب ذلك، عشر آيات (ومن قام بمائة آية كان من القانتين)(11) عجيب مائة آية كأن تقرأ في الركعة الأولى مثلاً يس، فيهـــا

كذا وثمانين آية،بضع و ثمانون، وفي الركعة الثانية بمثل... والضحى أو اقــرأ أو سبح... حتى تكمل المائة؛ فتكون من القانتين. ومترلة القنوت التي هي الخضوع المطلق لله الواحد القهار، التي هي العابدية العليا مترلةٌ عظيمةٌ جداً،و ربي سهلها بحجم القيام فيها؛ ثم النبي –صلى الله عليه وسلم- أجاز لك أن تجزئ ذلك، قال –عليه الصلاة والسلام- (من قام بمائة آيةٍ في ليلة) ليلة واحدة (كتب له قنــوت ليلة)(12) يعني ليلة واحدة تعطى ثواب القنوت فيها،فإن لم تقنت في غيرهــا لا ثواب لك، و لكن يمكنك أن تحصل على معنى القانت من حينٍ لآخــر، حــتى تكون بعد ذلك من المواظبين، فتنال درجة القنوت إلى الأبد إن شاء الله. (ومــن قام بألف آيةٍ كتب من المقنطرين) هذا الذي ليس عنده عداد، ولــيس عنــده حساب، وفقنا الله أن نكون منهم جميعاً. قلت المؤمن الحقيقي يملأه شوق إلى الله عز وجل، ولذلك لا يشبع من القرآن، ولا يشبع مــن الفاتحــة، لأن حقيقــة الترداد،تكرار قراءة الفاتحة، ألزمنا سبحانه به، وهو تكرار لم تحظ به سورة مــن سور القرآن إطلاقاً، ما عدا الفاتحة، إلا لأن فيها من الأسرار، ما لو أن الإنسان بقي عمره كله يقرأها ويعيدها، ويقرأها ويعيدها، لا تنتهي أسرارها...النعم التي فيها، والبركات التي فيها، والخيرات التي يعطيها ربي للمؤمن، وللعبد وهو يقرأها لا تنفد نهائياً، ولذلك المؤمن بقدر ما أعاد سورة الفاتحة فهو بخــيرٍ وإلى خــير، وهذه المطالع هي بداياتها، هي بدايات تشكل أصول التوحيد، أصول التوحيد في الإسلام موجودة في سورة الفاتحة أوائلها، أي في أوائلــها (**الحمد لله رب العالمين الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ**)(الفاتحة : 2,3,4) التوحيد كله اجتمع هنا، فــلا يزال المؤمن يقرأ ويقرأ و يقرأ وهو يرتقي في مدارج التوحيد .ابن القيم –رحمــه الله- وهو من العلماء الأتقياء الأذكياء ، في كتابه (مدارج السالكين بين إيــاك نعبد وإياك نستعين) استخرج منازل الإيمان كلها من هذه الآية (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ**

نَسْتَعِينُ)(الفاتحة :5) ولكن ماذا فعل؟ فسر قبل ذلك في الكتاب سورة الفاتحـــة كلها؛ وانطلق في ذلك من التوحيد، وكتَب مقالاتٍ عجيبةً قي توحيد الله عـــز وجل، فكلام ابن القيم –رحمه الله- عن التوحيد، إنما كان بسبب هذه البدايات من سورة الفاتحة، التي تعلم الإنسان كيف يوحد الله عز وجل توحيداً تربويـــاً؛ يعنى التوحيد عِلم يمكن حفظه، وكثير من الناس يحفظه ويستظهره عـــن ظهـــر قلب، ولكن ثماره التربوية؛ آثاره التربوية لا تُنال بالحفظ فقط، وإنما تنال بالسير والتوجه إلى الله عز وجل، ولذلك قلت ابن القيم رحمه الله تحدث عـــن قواعـــد التوحيد وأصوله تربوياً، وبين لك مدارج الإيمان، كيف تسير إلى الله لتنال درجة التوحيد، وتكون من الموحدين صدقاً: قولاً وعملاً وإحساساً، لما يجمع الإنسان همه كله فعلاً سيرا إلى الله عز وجل، أي أنه يشتغل بالله، شغله هو السير إلى الله عز وجل، وإنجاز الأعمال التي كلفه بها ربه، الذي خلقه وملك الحـــق الكامـــل عليه، و عرفه المكان الذي ينبغي أن يصل إليه، وهو هناك في الآخرة، وقال لـــه بالمعنى: أنا خلقتك هنا في الدنيا لتصل إلى هنـــاك في الآخـــرة (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) رب خالق مالك (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، المسافة كلها رُسمت، والقصة كلها فصلت في هذه الآيات (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ)(الفاتحة :2,3,4) كل مرة تطل منها لو أطللت، ماذا تبصر؟ تبصر الكون كله دنياه وآخرته، ولكن طبعاً النظرة الواحدة لا تكفي، في الخير تحتاج إلى ثانية وثالثة ورابعة، حياتك كاملة، ولذلك طُلـــب منـــك أن تقرأها في كل صلاة، أي أن تطل في كل صلاة علـــى هـــذه الحقيقـــة، تطـــل و..تبصر، إنها بصائر، وآية الآخرة (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) من أعظم البـــصائر -كمـــا ذكرت- من بعد بصيرة التوحيد؛التي تجعلك تبصر،لأنه قلنا: البصيرة هي المـــرآة

الصغيرة التي تطل من خلالها.. لترى ما خلف الباب، فتريك الأشياء بحجم أعظم و أكبر، فكذلك هذه الآيات، المؤمن إذن ليحل مـــشكلاته،جميع مـــشكلاته... فالمثبطات كثيرة، تريد أن تنطلق في طريق الله، فيأتيك ما يعجزك من أســـرتك، من مالك، من أشغالك، من همومك ؛علائق التراب أحبال وأسباب تـــشدك إلى التراب شداً، لكي تستطيع حل مشكلاتك، وتنطلق من أغلالك أبصر ثم أبصر ثم أبصر، أبصر نفسك من خلال هذه الآية (**ملك يوم الدين**) أبـــصر نفـــسك (**وفى أنفسكم أفلا تبصرون**) الذاريات 21 حينما تبصر نفسك ستجد علتها،ستكتشف مخز مرضها ومشكلاتها،ولن يرى ذلك غيرك؛ لا تنتظر أحدا كي يصلح شغلاتك النفسية، لن يصلح ما بنفسك إلا نفسك، سلط نفسك اللوامة علـــى نفـــسك الأمارة تكن من الفائزين، وتستقم على الصراط المستقيم، الذي ستأتي دعوتـــه الكبرى بعد ذلك من سورة الفاتحة، فاللهم اجعلنا من الهادين المهتدين، اللـــهم اجعلنا من الهادين المهتدين، اللهم اجعلنا من الهادين المهتدين، وبصرنا حقـــائق القرآن الكريم، واجعلنا ربنا لك من الشاكرين، وصل اللهم وسلم وبارك علـــى سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً { **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۞ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } [الصافات: 180 -182 ، أي في أوائلها (**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**).

الهوامش:

1 : جزء من حديث أبي هريرة في صحيح مسلم (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره.ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)

2 :عن أبي هريرة رضي الله عنه قال (خفف على داود القرآن ، فكان يأمر بدوابه فتسرج ؛ فيقرأ القرآن من قبل أن تسرج دوابه ، و لا يأكل إلا من عمل يده) صحيح الجامع للشيخ الألباني رحمه الله (خلاصة حكم المحدث: صحيح).

3 : صحيح البخاري

4 : في حديث ابن عثمة كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج وفي حديث زياد بن يونس من لم يقرأ بفاتحة الكتاب فصلاته خداج
الراوي: عبادة بن الصامت المحدث: ابن عبدالبر - المصدر: التمهيد - الصفحة أو الرقم: 191/20
خلاصة حكم المحدث: غريب من حديث مالك ومحفوظ من حديث الزهري
و قد ورد معنى الحديث أيضا في الحديث الصحيح الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم :
من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج (يقولها ثلاثا . بمثل حديثهم)
الراوي: أبو هريرة المحدث: مسلم - المصدر: صحيح مسلم - لصفحة أو الرقم: 395
خلاصة حكم المحدث: صحيح

5 : ورد هذا المعنى في حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم
أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم
الراوي: أبو هريرة المحدث: البخاري - المصدر: صحيح البخاري - لصفحة أو الرقم: 4704
خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

6 : إن الله لما قضى الخلق ، كتب عنده فوق عرشه : إن رحمتي سبقت غضبي
الراوي: أبو هريرة المحدث: البخاري - المصدر: صحيح البخاري - لصفحة أو الرقم: 7422
خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

7 : الراوي: عبدالله بن بسر المازني المحدث: الألباني - المصدر: صحيح الجامع - لصفحة أو الرقم: 7700

خلاصة حكم المحدث: صحيح

8 : جزء من حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم :
استقيموا ، و نعما إن استقمتم ، و خير أعمالكم الصلاة ، و لن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن
الراوي: أبو أمامة و عبادة بن الصامت المحدث: الألباني - المصدر: صحيح الجامع - لصفحة أو الرقم: 953
خلاصة حكم المحدث: صحيح

9: ورد هذا المعنى في هذا الحديث :
إن رهطا من الصحابة ذهبوا إلى بيوت النبي يسألون أزواجه عن عبادته فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها أي : اعتبروها قليلة ثم قالوا : أين نحن من رسول الله و قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر ؟ فقال أحدهم : أما أنا فأصوم الدهر فلا أفطر و قال الثاني : و أنا أقوم الليل فلا أنام و قال الثالث : و أنا أعتزل النساء فلما بلغ ذلك النبي بين لهم خطأهم و عوج طريقهم و قال لهم : إنما أنا أعلمكم بالله و أخشاكم له و لكني أقوم و أنام وأصوم و أفطر و أتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني
الراوي: - المحدث: الألباني - المصدر: غاية المرام - الصفحة أو الرقم: 208
خلاصة حكم المحدث: صحيح

10 :ورد معنى ذلك في هذا الحديث:
كان الرجل في حياة النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى رؤيا قصها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فتمنيت أن أرى رؤيا أقصها على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكنت غلاما شابا عزبا ، وكنت أنام في المسجد على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فرأيت في المنام : كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار ، فإذا هي مطوية كطي البئر ، وإذا لها قرنان كقرني البئر ، وإذا فيها ناس قد عرفتهم ، فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار ، أعوذ بالله من النار، فلقيهما ملك آخر ، فقال لي : لن تراع ، فقصصتها على حفصة ، فقصتها حفصة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : (نعم الرجل عبد الله ، لو كان يصلي بالليل) . قال سالم : فكان عبد الله لا ينام من الليل إلا قليلا .
الراوي: عبدالله بن عمر المحدث: البخاري - المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: 3738
خلاصة حكم المحدث: صحيح
و قد وردت فيه أيضا رواية أخرى صحيحة (و هناك روايات أخرى أيضا في هذا المعنى)
نعم الرجل عبد الله ، لو كان يصلي من الليل

الراوي: حفصة بنت عمر المحدث: الألباني - المصدر: صحيح الجامع - الصفحة أو الرقم: 6771
خلاصة حكم المحدث: صحيح

11: من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين
الراوي: عبدالله بن عمرو بن العاص المحدث: الألباني - المصدر: صحيح أبي داود - الصفحة أو الرقم: 1398
خلاصة حكم المحدث: صحيح

12: من حافظ على هؤلاء الصلوات المكتوبات لم يكتب من الغافلين ، و من قرأ في ليلة مائة آية كتب من القانتين
الراوي: أبو هريرة المحدث: الألباني - المصدر: السلسلة الصحيحة - الصفحة أو الرقم: 657
خلاصة حكم المحدث: صحيح على شرط الشيخين

WWW.ALFETRIA.COM